

فلسطين والاندلس ، فستجد هؤلاء السياح المغرمين ببكائيات الشعوب القديمة يحتاجون على انتهاك جمال الانسجام التاريخي . ان فكرة الفردوس المفقود تغري الشعراء المبتكرين الى موضوع مؤثر ولكنها تصيب الحالة الفلسطينية بتراكم الدموع وفقر الدم . وهذا هو تفوق وطني على الجنة ، لانه يشبهها ولانه ممكن .

— ألم تقف ، يوما ، على هذه الحافة حين وجدت نفسك خارج ملكية الطفولة ؟

• قبل هذا ، لا تملك الطفولة دعوى في المكان . ليس المكان الذي ولدت فيه هو دائما وطنك ، الا اذا كانت ولادتك جماعية وطبيعية . اذا كانت الولادة فردية واصطناعية فان المكان يكون صدفة . وذلك ما يشكل الفرق التاريخي بين ولادة محمود ويسرائيل في مكان واحد الآن . ان يتناسل غزاة في أرض الآخرين لا يؤلف حقاً وطنيا لهم . ولكن ان يتناسل شعب في وطنه هو ديمومة الوطنية وشرعيتها . والحيولة القسرية دون تكامل هذا الوضع ، الآن ، بسبب النفي لا تغير شيئاً حاسماً في تركيب الاشياء . أي أن تكامل معادلة الولادة لا يتم الا اذا كان نتيجة زواج الشعب والارض والحق . الولادة المعادية تتم الآن نتيجة علاقة بين غزاة وسيف وتوراة . ومن هنا ، لا نخشى تحول مفاهيم الحق في هذه الحالة .

معنى ذلك كله أنني لم أجد نفسي خارج ملكية الطفولة . وقد ساعدني على عدم الاقتراب من الاحساس بهذه الخسارة المعادل الآخر للوضع الذي توقف فجأة ولكنه لم يتغير في وجداني ، لان رحيلي لم يكن اختياريا . لم يكن سفرا . كان نفيا وطرادا . ذلك المعادل كان مجابهة مع ظروف قاسية في المنفى لا ينحصر الحل في رفضها وينضج في مقاومتها من داخلها بل في العودة الى جذوري . . التي تبدأ من التساؤل عما أوصلني اليها . نحن الآن في سن أكبر ، وبوسعنا أن نعترض على ظاهرة رد البؤس الفلسطيني الى ظروف المنفى الداخلية وحدها ، فذلك يشكل انتصارا لاسباب المنفى ومسببي النفي حيث استطاع المجرم ان يوقع بين الجرحى وادارة المستشفى . لا أقول هذا لأشيد بحسن الادارة وصحتها، بل للتذكير بأن الغزاة لا يجب ان يغيبوا عن البال حين ننشغل بجزئيات العمل الداخلي بيننا .

لم تكن قادرا على لجم الغضب حين كان اثراك في المنفى ينبهونك الى أنك فلسطيني وليس من حقك أن تتفوق في الدروس . كانت تلك الاهانات اول مفاتيح وعيك بحالة ستميطر على كيانك بعد بضع سنوات ، تفهم عندها ان قضيتك لا تنحصر في المطالبة بمساواة في الحقوق والحصول على مزيد من الخبز في ظروف طارئة . ولكنك في السن المبكرة اياها تلمست، بشكل غريزي، ان خلاصك من الاهانة يتم في تخلصك من الظروف التي سببت لك الاهانة . وكانت تلك بداية ارتباطك الضروري — لا الصدفى — بعالمك الاول . فتحولت قرينك الغامضة ذات الازقة الضيقة الواقفة على مرتفع صغير في سهل عكا الى حل لمشكلة لا تفهمها . ومن هنا ، صارت اشياء الطفولة المتروكة هناك والعودة للاحتفاظ بها أسلحة تبرهن بها على تشابهك المعادي مع الآخرين ، وأدلة على امتلاكك لشروط انسانية لا تشكل سببا لتعرضك الى الاهانة . وكان احساسك بهذا البرهان يلتهم ، بشكل خاص ، في أيام الاعياد . كان الاطفال الآخرون يرتدون الثياب الجديدة ويتحدثون عن طعام العيد . وكنت تقف مع ابيك وجدك في طابور الشحاذين لتحصل على حصتك من طعام ولباس لا تعرف مصدره .

— متى حدث ذلك ؟

• في عام ١٩٤٩ . بعد عام على الرحيل .